الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بين الحب والاعجاب — شبهة لغوية — غناء وغناء

بين الحب والاعجاب

الصلة بين الكاتب والقارئ متنوعة الألوان ، فهنالك كاتب يحبه القارئ ، وكاتب يعجب به القارئ ، وكاتب يظفر بالحب والإعجاب

ومرد الأمر إلى ذاتية الكاتب ، فإن كان أدبه أدب وجدان فهو جدير بالحب ، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب ، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب المنشود ، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول

والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان ، فإن خلا من أحد هذين الزادين فهو عرضة للضعف ، وإن خلا منهما معاً فهو إلى فناء

وقد يظن بعض الناس أن الذكاء والوجدان من المواهب التوابت ، وأن من حق الموهوبين أن يتكلموا حين يريدون . وهذا توهم ، فما يستطيع أعظم عقل أو أكبر قلب أن يجود بالمعاني في كل وقت ، وإنما هي بوارق تصدر عن العقل والقلب من حين إلى أحايين

ومع هذا فمن المؤكد عندي أن العقول تراض وأن القلوب تراض ، ولكن كيف ؟

هنالك أغذية لا يعرفها مؤتمر الأغذية ، وهي التأملات في دقائق الفروق بين الحيوات الحسية والمعنوية ، وهي فروق لطاف لا يدركها غير قلب الأديب وعقل الفيلسوف

والظاهر أيضاً أنه لا بد من التزود بما سميته « الحاسة الفنية » وهي حاسة لا توهب لجميع الناس ، وإنما يختص الله بها من يشاء ، وإلا فكيف جاز أن يكون النوابغ في كل أمة آحاداً وإن زاد أبناؤها على عشرات الملايين ؟

إن الوجود كتاب مفتوح ، ولكنه لا يقرأ بسهولة ، ولا يجتلى أسراره غير أفراد ، فكيف نصل إلى لبابه المكنون ؟

أعتقد أن مسئوليتنا نحو أنفسنا خطيرة ، فنحن نضيع فرص التأمل ، ونحن نتهيب ما يغضب المجتمع ، ونحن نجعل السلامة شارة النصر المبين

الأصل في الأدب أن يكون ثورة عقلية وذوقية ، والأصل في طبيعة الأديب أن تكون قوة موجية ، قوة تعطي وتمنح ، ومنها تصدر أقباس الفكر وألوان الخيال

وليس معنى هذا أن يعيش الأديب عيش المحادة للمجتمع ، فالمحادة المقصودة عناد بغيض ، ولكن معناه أن يستقل الأديب عن الموحيات الخارجية ، موحيات الظروف ، بصورة تجعل أدبه من وحي الخلود

ويظن ناس أن الكاتب المحبوب هو الذي يحدث قراءه عما يألفون ، وهذا خطأ في خطأ ، وإنما الكاتب المحبوب هو الذي يمضي بقرائه إلى شعاب من الفكر والروح والوجدان لا يصلون إليها بغير دليل . فمن غفلة بعض الكاتبين أن يأنسوا إلى العامية الفكرية ، عامية الرأي المبذول بغير حساب على اختلاف عهود التاريخ . وما قيمة الكاتب إن لم يشعر القارئ بأنه هداه إلى أفق جديد من آفاق العقل والروح ، ولو بلمحة سانحة في أثناء الحديث ؟

يجب أن تكون للكاتب ذاتية عقلية وروحية ، عساه يخلق في القارئ وجداناً يحس به حقائق الوجود . فليس بكاتب ولا مفكر من يكون محصوله نفاضة من أضابير زهد فيها المنكبوت

والأدب عند كل أمة وفي كل عهد سمو وعلاء ، أو هو التعبير الصحيح عن المطامح الكريمة في السمو والعلاء ، ولهذا كان من آساسه الأصيلة أن يكون طريف الفكرة جميل الأسلوب

وليس المراد من طرافة الفكرة أن تكون رأياً لم يسمع بمثله الناس ، لا ، وإنما المراد أن يكون تعبير الكاتب عنها تعبيراً ذاتياً يجعلها من الطريف ، بحيث لو تحدث عنها غيره لعدت من الحديث المعاد

أما جمال الأسلوب فله عندي مقياس يخالف المعروف من المقاييس ، والكاتب صاحب الأسلوب في نظري هو الكاتب الذي يشغلك بنفسك حين يوجه إليك الحديث ، ومعنى هذا أن تبرز الفكرة بصورة قهارة ينسى فيها القارئ أنه في صحبة كاتب ، ولا يدرك إلا أنه يواجه معضلات يعترك فيها العقل والوجدان . وهذه البراعة لا تتفق للكاتب ولا تنصاع إليه

إلا بعد أن يكون إماماً فى لغته ، إمامة صحيحة كونتها الرياضات الطوال على الأداء المبين بالأسلوب الرشيق

شبهة لغوية

هى شبهة من يترهمون أن اللفظة الفصيحة هى اللفظة المخدَّرة ويريدون بها اللفظة التى لا يعرفها سواد الناس ، فالكاتب العظيم فى نظر هؤلاء هو الكاتب الذى يتجافى المأنوس من الألفاظ ، ويؤثر الألفاظ التى عاشت فى المعاجم بقوة التحنيط وإن حُرمت الحياة منذ أزمان

وأنا لا أقيم وزناً لهذا الرأى ، وأضيف أصحابه إلى الجهلاء ، ولا يؤذينى أن يتهمونى بالتسامح فى اللغة ، كما طاب لأحدهم أن يقول ذلك فى إحدى المجلات

الألفاظ تتقاتل فى سبيل العيش كما يتقاتل الناس ، فينتصر فريق وينهزم فريق ، ثم يجىء الكاتب الحصيف فيعانق اللفظ المنتصر ، ويتقدم الكاتب المخذول فيعانق اللفظ المخذول

كان أحد أعضاء المجمع اللغوى — وهو السيد حسن القاياتى — أنكر علىّ فى مقال نشره فى جريدة البلاغ منذ سنين أن أستعمل لفظة « يستأهل » بمعنى « يستحق » فكتبت فى الرد عليه مقالاً بعنوان : « والله تستأهل يا قلبى »

واستعملت مرة كلمة « شافَ » بمعنى « رأى » فثار خلقٌ من خلق الله وعدونى من المتسامحين فى اللغة ، فسألتهم عن « تشوّف » وهى كلمة كثيرة الورود فى قصائد التشبيب ، ثم أكدت لهم أن العرب فى جميع الأقطار يقولون : « شافه » بمعنى « رآه » وقد « شفتهم » بعينى !

أتريدون الحق ؟

الحق أن النقد اللغوى غلبت عليه الصبغة البيغاوية ، وإليكم هذا المثال :

قضى علماء البلاغة نحو عشرة قرون وهم يقولون فى مؤلفاتهم وفى دروسهم بأن المتنبى أخطأ فى جمع بوق على بوقات حين قال :

فإن يك بعض الناس سيفاً لدولةٍ ففى الناس بوقاتٌ لها وطبول

وكان العجب كل العجب أن يتحامل علماء البلاغة على المتنبى نحو عشرة قرون ، ولا يجدون من يهديهم إلى الصواب

وأثنى على نفسى « للمرة الأولى بعد الديشيليون » فأقول أنى تفردت برفع الظلم الذى عاناه المتنبى فى تلك القرون ، ولكن كيف ؟

ليست البوقات جمع بوق ، كما توهموا ، وإنما هى جمع بوقة ، والبوقة هى اللفظة الاصطلاحية فى موسيقا الجيش العربى ، كما تشهد نصوص رأيتها فى بعض كتب التاريخ

وهنا أسوق فائدة لا أذكر أنى رأيت من نبه إليها فى كتب الصرف ، وهى جعل التأنيث من صور التصغير ، فالبوقة أصغر من البوق ، والطبلة أصغر من الطبل ، والبحرة أصغر من البحر ، وقد بولغ فى تصغيرها فصارت بحيرة

و « طُونس » الساقية فى عُرف أهل الريف له وصلة يسمونها « الفرخ » إن كانت طويلة ، ويسمونها « الفرخة » إن كانت قصيرة

وفى شوارع القاهرة نجد باعةً يتغنّى :

« حَسَبٌ العزيز الرُّبعة بقرش »

فما الرُّبعة ؟ هى مصغّر الرُّبع ، بلا جدال

إن الصفة البيغاوية فى النقد اللغوى أضرت باللغة وآذتها أعنف الإيذاء ، فقد كتب كاتب فى الرسالة ينقد استعمال كلمة « مَرير » بمعنى مُر ، وحجته أن المرير هو الحبل المحكم الفتل ، ثم اتفق أن رأيت الشريف الرضى يستعمل كلمة المرير ويريد بها المر ، فنظرت فى أساس البلاغة فوجدت الزمخشرى نص عليها بوضوح لا يحتمل الخلاف

وأنكر قومٌ جمع صناعة على صنائع ، وألحوا إلى أن حملوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع ، مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العدّ ، وعلى أقلام كبار البلغاء

وأنكروا أن تنسب إلى الطبيعة فتقول طبيعى ، مع أن العرب لم يقولوا طبَعى ، ومع أن « فَعَلىّ » فى « فَعيلة » هو فى ذاته شذوذ

والجرائد تقول « القتيل » وهى تريد القتيلة ، لأن قائلاً قال بأن « فعيل » يستوى فيه التذكير والتأنيث ، وهذا خطأ ، إذا كان فعيل بمعنى مفعول ، وهل أخطأ صاحب لسان العرب حين قال : رجل دفين وامرأة دفينة ؟

ولم يفهم النحويون علة التذكير فى آية « إن رحمة الله قريب من المحسنين » فعدوه تذكيراً أوجبته المجاورة ونسوا أن « قريب » فى معنى الفاعل لا معنى المفعول

والمراد من الصفة البيغاوية فى النقد اللغوى هو أن يحكى بعض الناس ما يقرأون حكاية البيغاوات . فأكثر ما نرى من اعتراض هو ألفاظ منقولة عن ناس تعرضوا للنقد اللغوى بلا بصيرة ولا يقين

لغة العرب لغة آبائنا وأجدادنا ، فليعرف منّا من لم يكن يعرف

أن خطأنا فيها أفصح من الصواب . وإننا لن نستمع لأى اعتراض بعد أن ركزنا الراية فوق ناصية الخلود

غناء وغناء

فى مكان يستبق إليه ضياء الشمس ، ونور القمر ، وهدير الأمواج ، وقفت أنتظر وفاء بميعاد هو الميعاد

وأقبلت الروح الملائكية فى سمة إنسانية ، كما يطيب للملائكة أن تتشكل بصور الناس فى بعض الأحيان

ودار حديثٌ أعذب من رنين الكؤوس ، وأرقّ من وسوسة الحلىّ ، فى لحظات الصفاء

ثم دار عتابٌ كعتاب القلوب للعيون ، فماذا قلت وماذا قالت تلك الروح ، وقد أصغى البحر واستمع الوجود ؟

لو تجمّع ما أثار البحر من عواطف على اختلاف الأجيال ، ولو اعتصرت الحياة ما يجرى فى أعوادها من رحيق الحب ، لكان هذا وذاك دونَ ما أضفينا على الكون من بهجة النعيم ... ولو دُعينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل أن نقضى العمر فى شكرانٍ من قضت حكمته أن يجعل الحب سيطرة روح على روح ، وانجذاب روح إلى روح

كان ضجيج المدينة أضعف من أن يحجب سرار القلوب ، وكان القمر بفضل عليائه أشرف من أن ينمّ عن خلوة حبيب بمحبوب

فى شهر يونية تقوم غمامة تحجب القمر فى لحظة لا تنتظر ظلال السحاب ، فنفهم أن للحب والشعر آلهة ، كما تقول أساطير القدماء

كانت الدنيا كلها فى يدى ، وكان هواى هو الهوى ، وزمانى هو الزمان ، وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف ، وهل يعرف أحدٌ ما لغةُ الأنفاس الحرار ؟ وكيف وما كانت اللغات إلا تعابير عما يجوز البَوْح به من سرائر الأرواح ؟

وأين اللغة التى تعبّر عن فرحنا بالحب فى تلك اللحظة الوجدانية ؟

أين أين ... وهى لحظة ما ظفر بمثلها عاشق فى قديم ولا حديث ؟

هى زاد العمر كله ، فليتمرّد الهجر كيف شاء بعد ذلك الوصال .

لو مرّت تلك اللحظة بالناس فى ماضيهم البعيد لظفرت اللغات بألفاظ وتعابير تفوق الوصف ، ولكان من السهل أن أشرح ما يوحى به ذَرْع « الرمل » على نغمات الموج فى صمت الليل

ثم نفترق ، فمتى نلتقى ، يا روحاً لا يحيا بدونه روحى ؟

للوجود كله غِناء ، ولنا وحدنا غناء ، وروحك هو غَريد البلبل ، وحفيف النسيم ، وهدير الموج ، وعربدة الكهرباء

ثم نفترق وقد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق ، وهذه إشارة لا يفهمها غير أسارى هذين النورين فى « دار الوجد والمجد » ، عليها أطيب التسليمات !

فمن فاته أن يعرف سر هيامى بوطنى فليقرأ هذه السطور بروحانية وإخلاص

الإسكندرية هى المثال المصوّر لسرائر النساء ، ومن لم يزر الإسكندرية فليس من حقه أن يزعم أنه عاش لحظةً من زمان

ولى فى الإسكندرية دارٌ تشكو جفائى ، ولم أكن من الجافين ، دارٌ أسارورها بلا استئذان حين أريد ، كأنها دار الهوى فى سنتريس أو بغداد أو باريس

فى الصبح قرأت مقالاً فى جريدة الأهرام عن إيطاليا بعد ثلاث سنين ، وفى الظهر قرأت مقالاً فى جريدة الريفورم عن إيطاليا بعد ثلاث سنين ، فتذكرت أنى عرفت تلك الروح فى اليوم الذى أعلنتْ فيه إيطاليا الحرب قبل ثلاث سنين

وما أبعد الفرق بين إيطاليا وبينى !

مرّت بها موجاتٌ هزمتها ، ومرت بى موجات نصرتنى

أفى الحق أننا لم نتعارف إلا قبل ثلاث سنين ؟

أنت يا جنّية الشاطىء رفيقة روحى منذ أزمان وأجيال ، وأنت مُنائى من الهوى قبل أن يتنفس صبح الوجود

لا بدّ للاسكندرية من حبيبَيْن ، فلنكن هذين الحبيبين ، ولتفرح بنا الإسكندرية فرح الأليف بالأليف

يا مثال الحُسن ومثال اللطف ، ويا ريحانةً مطلولة فى صباح من أصيحة آذار !

يا تلك الروح فى تلك المدينة ، تذكرى ثم تذكرى ، تذكرى « سبعة أبحُر » فى لغة العراق و « سبعة أرادبّ » فى لغة السودان ، وتذكرى الأبيات التى أمليتها عليك من لغة الفرنسيس .

وإلى اللقاء فى شعاب الوجدان

زكى مبارك